البحث عن زمن الحرب في شعر الحرب

طراد الكبيسي
(العراق)

(١)

أين تتجلى حدود الزمن: الماضي، الحاضر، المستقبل، في العمل الابداعي؟ أم أن الزمن هو ما نقرأه ونكتبه ونكتشفه؟!

كيف يمكن للزمن أن يتخلص من التاريخ؟ كيف يمكن للتاريخ أن يتنبأ بنا، وكيف له أن يحضر معنا، وكيف له بعد ألف عام، مثلاً، أن يكتشفنا؟

وباختصار أبمستطاعنا أن ننقذ أنفسنا مما أسماه اليوت «بالتدمير الجارف» للزمن[١]. و: أيمكن للفأس والشجرة ألا يلتقيا في الصدى؟!

لا نتحدث عن زمن معين: (واقعي، فلسفي، تاريخي، سايكولوجي..) فالذين يقرأون الشعر كأبداعٍ، يجدون أنه لا يحد بزمن. فمن خصائص الشعر الأساسية كونه، كنتاج زماني، لازمنياً، قادراً على اختراق الأزمنة، ومعايشة كل الأزمنة. انه اختراق للآني إلى الدائم، وللمنقطع إلى اللامنقطع.. ومع ذلك، لا يمكن أن يقال إن ما هو شعري أو تخييلي يمكن أن يوجد خارج الزمن، حيث يبدو كل شيء مرتبطاً بالزمن. ومن دلائل هذا لجوء الشاعر في التعبير عن تجربته إلى تجارب أو رموز ماضية (بما فيها رموز طفولته) حيث يغدو الشعر أكثر تاريخية، والتاريخ أقرب للشعر من أي شيء آخر (كالفلسفة مثلاً).

فالشعر يتأمل التاريخ ويكتبه بوعي ورؤى أكثر ذاتية ورمزية وشمولية، وهو بهذا ـ أي الشعر الأكثر تاريخية ـ يرى أن الماضي أقدر على تقديم معنى للحاضر، وامتداداً، بالتالي، في المستقبل!

(٢)

الذي لا شك فيه، أنه لا شيء ثابت مع الزمن. فالزمن يتغير في الأشياء، والأشياء حتى تعيش، أو تبدو على قيد الحياة، لا بد لها هي الأخرى من أن تتغير مع الزمن. والشعر يتغير من خلال قراءتنا له قراءة متغيرة. فنحن لا نقرأ امرأ القيس أو الأعشى كما كان يقرأهما أهل زمانهما أو من تلاهما. ولا يبدو لنا امرؤ القيس أو الأعشى كما هما في زمنهما، فقد طالهما تغير الزمن، وتغيرنا نحن مع الزمن. لكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننفي امرأ القيس أو الأعشى عن عالمهما وتاريخهما بحيث يبدوان كما لو كانا مخلوقين غريبين لا يمتان الى عالم وتاريخ ذاكرتنا، أو عالم وتاريخ مجتمع وثقافة وجغرافيا..

إن المجهود الذي يبذله القارىء بعد ألف عام، مثلاً،

بحثاً عن معنى في شعر الحرب، كما تبذل المجهودات اليوم، بعد أكثر من ألف عام، بحثاً عن معنى في شعر الحرب عند العرب قبل الاسلام، مثلاً، لن يكون بأي حال بحثاً عن الرعب الكامن في مجانية فعل القتل الانساني وحسب، بل لا بد أن يكون بحثاً في مغزى هذا القتل من حيث انه: مفارقة تاريخية في تدمير المنتوج الزمني: تدمير الانسان والحضارة قبل أوان زوالهما الطبيعي.

(٣)

يشكل الماضي عنصراً أساسياً، بل لعله العنصر الأهم على الاطلاق في قصيدة الحرب، على مستوى بنية التخييل واللغة والقيم الفكرية والأخلاقية، بل والحدث المادي أحياناً. وكأن الشاعر يريد أن يقول لنا: الزمن هو الحاضر كله (أو أن التاريخ والوضع الانساني يشكل منظوراً لا زمانياً)، وبالتالي لا يغدو عجيباً الحس باستمرارية ووحدة الزمن.

على أن هذا لا يُقترح الا بخصوص «نماذج متعالية» أو متكررة من الشخصيات والأحداث لها طابع الاسطورية أو الرمزية التي تعبر عن «حقيقة انسانية مطلقة» يمتزج فيها ما هو تاريخي بما هو استعاري، مشكلاً ما يمكن دعوته باستراتيجية النص، موهماً بأن ما وقع في الماضي قابل لأن يقع في كل زمان ومكان، وبالذات عندما يكون التعبير عن النفس الانسانية متمحوراً حول أعمق مدركاتها وأبعد رؤاها، حيث يشكل التعبير هذا متتابعة متناصّة، وكأن الزمن فيها مثل النهر الجاري: المياه تمر من حولك، لكنك لن تخوض المياه نفسها مرتين.

في شعر حميد سعيد، مثلاً، نجد الماضي دائماً هو الذي يمنح الحاضر معناه، ويتوحد معه في تشكيل المستقبل: (محمد البقال) في القصيدة ذاتها، هو ماض (رفيق صبا) الشاعر. افترقا ثم التقيا (أمس) في نداء القادسية.

ومثل (محمد البقال) العريف عبد العباس، ومنصور، في القصائد المسماة باسميهما، لقاء مع مرحلة سابقة.

وهكذا ـ يقول حميد سعيد ـ : (وجدت طفولة الأشياء (الماضي) وهي غير معزولة عن واقع كان وواقع تغيّر. وبهذا اكتشفت الطريق المؤدي إلى قصيدة الحرب)[٢] قصيدة خاصة به، متمثلاً التحول الذي أحدثته الحرب ومتغيرات الواقع في مسار حياة كل واحد من هذه الشخصيات.

ولا يبرز هذا في (طفولة الماء) بل وفي جملة قصائد (مملكة عبد الله). وقصيدة (العصفور الأبيض) مثال حسن على استثمار الرمزية الكامنة في المعتقد الشعبي: العصفور الأبيض، هو عصفور الجنة. ومن خلال استعادة الزمن الماضي (البهيّ) كما يصفه[٣]، (والماضي دائماً بهي في نظر المحدثين!) وابتداء من الذاكرة، يصبح العصفور الأبيض معادلاً للضياء الأبيض (الشمس نهر من القطن) الذي يبشر باقتراب الحلم أو اللقاء به: أن تفتح أبواب الجنة، أو أبواب إرم ذات العماد.. أو تبدأ اجازته الاربعاء..

وهكذا يصبح ظهور العصفور الأبيض ثانية (المرَّة الأول في الطفولة، والثانية في موضع المقاتلين) العبارة عن حضور الماضي، أو لقاء الحاضر بالماضي، لقاء يجعل من الماضي تاريخاً مستمراً لا ينقطع.

والحقيقة إذا تأملنا جملة قصائد الحرب نجد هذا البعد الماضوي، سواء بدأت بالفعل الماضي أو بدأت بالفعل الحاضر (المضارع) حيث يظل الأخير في دلالته الزمنية، ماضياً، يجترح الحاضر أو يتنبأ به، أي يشكله على نحو رؤيوي وواقعي أحياناً: (قصيدة «رؤيا نبوخذ نصر» مثلاً لعبد الرزاق عبد الواحد حيث يحمل الماضي هم الحاضر الذي يولد بدوره من رحمه ـ رحم الماضي).

ولنتأمل، مثلاً، مفتتحات القصائد التالية لحميد سعيد:

١ ـ عند اقتراب الفجر:

أكتب مقطع القصيدة الأول..
يطلق الاطلاقة الأولى..
أحاول اقتناص معنى..
فيحاول اقتناص الهدف المعادي
الله يا بلادي..
الفاو في أصابعي..

أخشى على حروفها من زلل الكتابة
ونبرة الخطابة
يصوّب الآن على العدو.. يخشى خطأ الإصابة

٢ ـ إشراقات الشهيد عباس بن شلب:

الليلة أسهر منتظراً أحبابي
ونثيث اللؤلؤ، يسهر في بستان الجيران..
يشاكس صفصافات الشارع
يعبث بالنارنج.. وورد الرمان
تهرب لؤلؤة من حقل الضوء.. تنام على بابي
أوقظها، تنهض مسرعة
فأخاف عليها من برد الليل
أحبّئها بين ثيابي.

٣ ـ رمل وحناء:

النار واطئة.. وتصعد ثم تصعد
كان ليل الفاو يفترس الرصاصة..
تختفي الظلمات في الذهب المذاب
ويجيء عبد الله من دمه..
وتصحبه الأغاني
فلتتبعاني.. يا صاحبيّ تقدماً..
الرمل يومىء لي..
فأركض.. تركض الحناء قبلي والنخيل..

فهنا ورغم أن جل الأفعال مضارعة، فإن الحديث دائماً يجري عن الشخص الآخر (المقاتل، الشهيد..) (الغائب ـ الحاضر) أي أن الحديث هو بمثابة انفتاح الذاكرة على أشخاص وأحداث (رموز) تستعاد من زمن مضى. واللقاء بها، حاضراً، يمثل لقاء الحاضر بالماضي المستمر إلى الحاضر، مع أخذ التغيرات التي أصابت هذا الماضي أو اختلطت به بنظر الاعتبار، بالطبع.

(٤)

على أية حال.. يبدو أن استخدام التاريخ أو الأسطورة والشخصيات والحكايات التاريخية والاشارات الى أزمنة وأمكنة أو أحداث تاريخية، هو المؤشر الأكثر وضوحاً على خلق منظور لازماني ونقل الاحساس باستمرارية وتوحد الازمنة، وبالتالي تجسيد وضع انساني بقدر ما يمتلك من الخاص ينطوي على العام، وكأننا ازاء حالة تذكير دائمة «بالعود الأبدي للشيء نفسه» أو لنقل: تجسيد الاحساس باستمرارية الزمن والاشارة في الوقت نفسه إلى معنى الرمز في التعبير عن حقيقة انسانية مطلقة[٤].

وهذه الحالة تشكل ظاهرة بارزة في قصيدة الحرب، وخاصة عندما تتمحور الفكرة أو الرؤية الرئيسية للقصيدة حول شخصية تتجسد رمزاً وطنياً أو قومياً بمتزج فيها ما هو تاريخي بما هو استعاري[٥] حيث يكون لقاء الحاضر بالماضي، لقاء عميقاً شاملاً ساحقاً.

أولاً: يمكن أن نضرب مثلاً بقصائد الحرب التي تقوم على استخدام الرموز الشخصية/ والأحداث/ التاريخية أو المثيولوجية، حيث (المعنى) في استحضار الماضي، يأتي: (أولا) من اعتبار (الماضي) ينطوي على طاقة رمزية ما تزال قادرة على صنع التاريخ والحضارة من خلال تجسد دلالتها هذه في أشخاص أو أحداث معاصرة.

فجلجامش في قصيدة (رأيت ما رأيت) لسامي مهدي، ونبـوخـذ نصر في (رؤيا نبوخذ نصر) لعبد الرزاق عبد الواحد، وحمورابي في (مسلة أخرى) لمعد الجبوري وسيدة المحبة ـ عشتار في قصيدة (الحرب) لياسين طه حافظ، ورمز الشهادة في (رؤيا نصب الشهيد) لحميد سعيد، والرمز في الحكايات الشعبية حول عودة الغائب في (سيدة الأهوار) ـ تسواهن ـ ليوسف الصائغ.. الخ، إنما هي (تمثيل) لفكرة النسق اللازماني كما تجسده نماذج متعالية، كرموز تقترح للتكرار الدائري للشيء نفسه، أو لوضع انساني مشابه، يمكن أن تعاش ثانية في دلالتها على وضع يدوم خارج الزمان والمكان[٦].

ثـانياً: ثم إن الصراع في مثل هذه القصائد، ليس هو صراع الموت والحياة، الحب والكراهية، الشهادة والقتل.. وحسب، بل صراع داخل أزمنة ينكشف فيه الماضي انكشافاً يغدو معه وكأنه الزمان كلُّه! فمن ضرع الماضي تتغذى ملحمة الوجود والماضي لا يحترق ولكنه يتجدد مثل طائر الفينكس.

إن محاولة الشاعر كتابة قصيدة ملحمية ـ بطولية تعد بذاتها محاولة لاختراق الزمن المقطوع إلى ما هو باق ومتعال على الزوال.. إذا لاحظنا أن البطل في الملحمة لايعني رجلاً معيناً بالذات في لحظة معينة بالذات من لحظات التاريخ، ولكن يعني «الانسان في التاريخ»(٧).

فالبطولة والشهادة تجسيد لقيم انسانية واخلاقية لا تُحدّ بزمن، لأنها ذات دلالة رمزية. والرمز «نموذج أصلي يعبر عن حقيقة انسانية مطلقة» يجمع بين ما هو زماني ولا زماني ويخاطب قوى الانسان العقلية والشعورية معاً. وهكذا هو نصب الشهيد، مثلاً، حيث الموت (الماضي) لا يصير فناء مطلقاً، بل يصير تغيراً من عنصر إلى آخر(٨)، أي حاضراً يصير ماضياً ثم يتجدد الماضي هذا إلى حاضر.. وهكذا.. يستمر الماضي في متتابعات لا تنقطع.

الاشارات:

(١) عن مقال: (الأدب الحديث والاحساس بالزمن) مجلة (الثقافة الاجنبية) العدد الثاني ١٩٨٨ ـ ص ٤٩.
(٢) (٣) حميد سعيد الكشف عن أسرار القصيدة: ص ١٠٦ ـ ١٢٧.
(٤) كتابنا: (قصيدة الحرب الحديثة في العراق) ص ٢٦.
(٥) نفسه: ص ٢٧.
(٦) الزمن في الأدب ـ هانز ميرهوف ـ ترجمة أسعد رزوق: ص ٩٠.
(٧) الملاحم كتابة وثقافة. د. أحمد أبو زيد. مجلة (عالم الفكر) العدد الأول ١٩٨٥ ـ ص ٦.
(٨) جدل الحب والحرب: هيرقليطس: ترجمة وتعليق مجاهد عبد المنعم مجاهد: ص٧٢.